بسم الله الرحمن الرحيم

المصطلح العلمي واللغة عند أبي الوليد ابن رشد الفيلسوف

أيها السيدات والسادة:

فهذا بحث يحاول إلقاء الضوء على قضية "المصطلح" في لغة أحد العلماء والمفكرين في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، وأحد مشاهير تاريخ الفكر العلمي في العالم، وهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد الفيلسوف، شارح أرسطو، واشتهر في أوروبا بالقرون الوسطى باسم (Averroes). فهو إمام في العلوم القرآنية والحديث، وعالم بالعلوم الطبيعية (في الفيزياء والطب والأحياء والفلك) وفيلسوف، ترك بصمات مهمة في الحضارة الإنسانية.

ولد ابن رشد بقرطبة عام ٥٢٠هـ ١١٢٦م، وتوفي في مراكش عام ٥٩٥هـ ١١٩٨م.[١] ويحدثنا ابن أبي أصيبعة (المتوفى عام ٦٦٨هـ) عن مؤلفات ابن رشد فيقول:" وكما كان أوحد في علم الفقه والخلاف، كان أيضاً متميزاً في علم الطب، وأن له في الطب كتاب الكليات، وقد أجاد في تأليفه.." وفي حديث ابن أبي أصيبعة عن هذا الكتاب يقول: وكان بينه (أي ابن رشد)، وبين أبي مروان ابن زهر مودة، ولما ألّف كتابه هذا في الأمور الكلية قصد من أبن زهر أن يؤلف كتاباً في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب[٢].

وكان للتكوين اللغوي والثقافي لابن رشد، دور كبير في حسن التعبير عن المعاني بدقةٍ ووضوح في جميع حقول المعرفة، سواء أكان ذلك تأليفاً أم تلخيصاً وتفسيراً. فقد نشأ في بيت علم وفضل، وكان جده (المتوفى عام ٥٢٠هـ) قد تولى القضاء وإمامة الجامع الكبير في قرطبة وكذلك كان والده قاضياً. وليس من شأن هذه الدراسة أن تتحدث عن نشأة ابن رشد وشيوخه ومجريات حياته، ولكن يهمنا أن نشير إلى موقع اللغة العربية في تكوينه الثقافي

---

(١) انظر .The Encyclopaedia of Islam, New Edition, vol ,p. ٩٠٩-٩٢٠

(٢) . انظر: ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، بيروت ص٥٣٠- ٥٣١.

والعلمي، بخاصة وعند علماء الملة في المشرق الإسلامي وفي مغربه بعامة. فقد كانوا على اختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرق التعليم، ينطلقون من قاعدة أصولية هي:" أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملَّة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب، من رسوخ الأيمان وعقائده، من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من اللغات. وبعد أن يشير ابن خلدون إلى مذهب أهل الأندلس في تعليم القرآن والكتاب[1]، يقول:" إلاَّ أنَّه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه، ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان، رواية الشعر في الغالب، والترسل، وأخذهم بقوانين العربية، وحفظها وتجويد الخط والكتاب..." .[2]

ونحن إذ نشير إلى القاعدة الجامعة في أساس التعليم في المشرق الإسلامي وفي مغربه، نهدف إلى تبيان موقع اللغة العربية في مصنفات هؤلاء المفكرين والعلماء والفلاسفة، ترجمة، وتلخيصاً وتفسيراً وتأليفاً ... وعندما ندرس الطبيب الفيلسوف والفقيه ابن رشد، نجد أن تميزه بسلامه العربية وفصاحتها ودقتها، كانت من أهم عوامل إبداعه، تأليفاً وتلخيصاً وتفسيراً، وإن الروايات التي بين أيدينا تشير إلى جانب حفظه القرآن الكريم كان ابن رشد الفيلسوف يحفظ "الموطأ" للأمام مالك، وكانت له دراية في العربية وعلومها. ويبدو أن تميزه اللغوي كان له دور مهم في تقديم الفكر اليوناني وعلوم الأوائل بثوب قشيب وبلغة عربية فصيحة وسلسة.

يحدثنا عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار

---

(١) والكتاب هنا مصدر لفعل "كتب". أي يعلمونهم الكتابة من حيث هي على الإطلاق لا رسم المصحف فقط.

(٢) . مقدمة ابن خلدون، ج٣ ص ١٢٤٩-١٢٥٠.

المغرب"[1] عن مؤلفات ابن رشد المتعلقة بأرسطوطاليس فيقول:" أخبرني تلميذه الأستاذ الفقيه أبو بكر بُنْدُود بن يحي القرطبي، قال: سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وأبو بكر ابن طفيل، ليس معهما غيرهما. فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي، ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدري، فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين، بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي، أن قال لي: ما رأيهم في السماء —يعني الفلاسفة– أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلَّل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرَّر معه ابن طفيل. ففهم أمير المؤمنين منِّي الروع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل، وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم. فرأيت منه غزارة حفظ، لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن، المتفرَّغين له. ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك. فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعةٍ سنيَّة ومركب" [2].

وتدل الروايات التي بين أيدينا أن أبا الوليد ابن رشد، كان في مراكش عام ٥٤٨هـ ١١٥٣م. وكان مشغولاً في ذلك الوقت بتأسيس كليات علمية على وفق سياسة الموحدين، وإنه كان هو نفسه يباشر الأرصاد الفلكية.

وربما كان لإيرادنا هذه الرواية، عن أحد تلاميذه أهمية خاصة، تلقي الأضواء على الفترة الزمنية التي وجد فيها في مراكش من ناحية، ومن ناحية أخرى تلقي الأضواء على الأجواء العلمية في بلاط الموحدين، وعلى تكليف ابن رشد بمهمة علمية تاريخية، لتقديم الفكر

---

(١). وإن أهمية رواية "المعجب" أن مؤلفه المراكشي قد فرغ من إملاء كتابه كما يقول، يوم السبت ٢٤ من جماده الآخرة من عام ٦٢١هـ، أي قريب عهدٍ من وفاة ابن رشد.

(٢) . عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، اختيار وتقديم أحمد بدر، دمشق/ ١٩٧٨ ص ٢٩.

اليوناني وعلوم الأوائل، بلغة عربية فصيحة دقيقة وواضحة، كما يخبرنا بذلك صاحب كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" فيقول:" وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه، قال: استدعاني أبو بكر ابن طفيل يوماً، فقال لي: سمعتُ اليوم أمير المؤمنين يتشكَّي من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه، ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرِّب أغراضها، بعد أن يفهمها فهماً جيداً، لقَرُب مأخذها على الناس، فإن كان منك فضل قوة لذلك فافعل. وإني لأرجو أن تفي به، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك، وقوة نزوعك إلى الصناعة. وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه. قال أبو الوليد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخَّصْتُهُ من كتب الحكيم أرسطوطاليس" [1].

لقد روى لنا ابن رشد، أسباب هذا المَنحْى العلمي الذي كان له أثر كبير في مسيرته العلمية والفلسفية، وبالتالي فيما تركه من آثار عميقة في تاريخ الفكر العلمي في الحضارة الإنسانية.

وربما كان من المفيد أن نتوقف عند قوله: إن" أمير المؤمنين يتشكَّى من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه...".

فقد أشار النص إلى قلق العبارة التي تخدش ذوق الدارسين بالعربية، وربط بينها وبين غموض الأغراض. وجعل فهم الأفكار في منابتها، والقدرة على التعبير عنها بدقة ووضوح ويسر، تقوم على أساس إتقان اللغة المنقول عنها، وإتقان اللغة المنقول إليها، والتمرس بفهم العلوم والمعارف المنقولة...

ومن الواضح أن هذه الشروط لم تتوافر في المترجمين الأوائل الذين نقلوا كتب أرسطو وكتب غيره من العلماء والفلاسفة إلى اللغة العربية. وإذا توافرت بعض الشروط، فقد لا تتوافر الشروط الأخرى. فكانت الكتب المترجمة إلى العربية، حتى عصر ابن رشد تتصف بالغموض

---

(١) . عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، اختيار وتقديم الدكتور أحمد بدر، دمشق، ١٩٧٨م، ص١٢٩- ١٣٠.

وقلق العبارة، إذ كان معظم النقلة والمترجمين من غير المسلمين.

وتجمع المصادر التي بين أيدينا على أن ابن رشد، كان يُفزع إلى فتواه في الطب، كما يفزع إلى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر في الأعراب والآداب. ويطرح السؤال حول مدى معرفة ابن رشد اللغة اليونانية واللغة اللاتينية. والذي لا شك فيه أنه كان يتقن اللاتينية شأنه شأن الكثيرين من أبناء جلدته في الأندلس، كما يشير إلى ذلك الأمام ابن حزم الأندلسي (المتوفى عام ٤٥٦هـ). وإن " التشكي من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه"، وأن البحث عمن "يفهم كتب أرسطوطاليس فهماً جيداً "... وكذلك عبارة أبي الوليد ابن رشد" فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس"، توحي لنا بأن ابن رشد قد اتصل بكتب أرسطوطاليس باللغة اليونانية إلى جانب استعانته باللغة اللاتينية".

وربما أن هذا كله هو الذي دفع الفيلسوف المغربي محمد عزيز الحبابي، إلى القول:" كان ابن رشد شارحاً لأرسطو، كما شرحه كثير غيره من قبل ومن بعد، ولكن الشروح الرشدية لم تأت بمجرد تعاليق وحواشٍ، ولكنها رمت إلى تعميق نظريات أرسطو لأبلاغها للآخرين بأكثر ما يمكن من الوضوح".

ولا شك أن الحبابي يشير إلى الارتقاء بـ"التلخيص" عند ابن رشد إلى مرحلة التمازج والتفاعل النفسي والفكري، وتأصيل المعارف من خلال اللغة العربية الفصيحة، فيما يسميه "التعريب" بمفهومه الخاص في العصر الحديث، الذي يرمي إلى توطين العلوم والمعارف والتقنيات في حياة أمتنا العربية الحضارية والعلمية والثقافية. يقول، في تعقيبه على بحث طه عبد الرحمن: كان ابن رشد يرتقي بالتلخيص إلى "التعريب" كما بينه طه عبد الرحمن. فقد استنطق ابن رشد نصوص أرسطو، وترجمها ترجمة جديدة، استئصالاً وتأصيلاً. انطلق بنيّته التَّغلّب على "قلق العبارة، لتصير النظريات الأرسطية "معربة ومفهومة"[1].

---

(١) . ندوة ابن رشد، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس (من ٢١- ٢٣ أبريل ١٩٧٨) ص ٣٨٢. بحث طه عبد الرحمن، وتعليق محمد عزيز الحبابي.

إن اللغة العلمية عند ابن رشد، ومنهجه في اختيار المصطلحات واستعمالها وإشاعتها، قضية أساسية في تراثه العلمي، سواء أكان ذلك في مجال الترجمة والتلخيص والتفسير أم كان في مجال الوضع والتأليف، في مختلف مجالات المعرفة. ومن أجل تقديم صورة عامة ومتكاملة، رأينا أن ندير هذه الدراسة المتواضعة على نصوص مختارة، ربما تمثل من حيث اللغة والمصطلح أهم المجالات في تراث أبي الوليد ابن رشد.

ونلاحظ أن ابن رشد يوضح المهمة التي نذر نفسه إليها عندما شرع في شرح كتابات أرسطو، إذ يبدأ"تلخيص كتاب "المقولات" بهذه العبارة:" الغرض في هذا القول تلخيص المعاني التي تضمَنتْها كتب أرسطو في صناعة المنطق وتحصيلها بحسب طاقتنا، وذلك على عادتنا في سائر كتبه. ولنبدأ بأول كتابٍ من كتبه في هذه الصناعة، وهو كتاب المقولات"[1].

وبعد أن يبين ابن رشد غرضه والمنهج الذي اتبعه، وأنه يبدأ بأول كتاب من كتب أرسطو في صناعة المنطق، وهو كتاب المقولات بقول:" إن هذا الكتاب بالجملة ينقسم إلى ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول بمنزلة الصدر لما يريد أن يقوله في هذا الكتاب، وذلك أنه يَشْتَملُ على الأمور التي تجري مما يريد أن يقوله في هذا الكتاب مجرى الأصول الموضوعة والحدود.

والجزء الثاني يذكر فيه المقولات العشر مقولة مقولة، ويرسم كل واحدة منها برسمها الخاص بها، ويقسمها إلى أنواعها المشهورة، ويعطي خواصها المشهورة.

والجزء الثالث يعرِّف فيه اللواحق العامة والأغراض المشتركة التي تلحق جميع المقولات أو أكثرها بما هي مقولات[2].

فمن الواضح أن هذا حديث ابن رشد، بلغته وأسلوبه، يصف هذا الكتاب وصفاً

---

(٢). ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، تحقيق الدكتور محمود قاسم، مصر، ١٩٨٠/ ص٧٥.

(١) . ابن رشد، تلخيص كتاب "المقولات"، تحقيق الدكتور محمود قاسم، مصر، ١٩٨٠/ ص٧٦.

شاملاً وأنه ينقسم بالجملة إلى ثلاثة أقسام. وقد استعمل مصطلحات محددة، منها ما يفيد مدلولاً محدداً مثل "تلخيص المعاني" الذي أصبح دالاً على منهج تناول ابن رشد مؤلفات أرسطو وغيرها من علوم الأوائل. ويشير إلى مصطلح " صناعة المنطق". ويسمي أول كتاب من كتب أرسطو في هذه الصناعة كتاب "المقولات" على وفق مصطلح علمي محدد. ويذكر "المقولات العشر"، ويتحدث عن المقولة بما هي مقولة... وكل ذلك بمعانٍ اصطلاحية محددة فمثلاً، إنَّ دلالة مصطلح "المقولات" تختلف عن المعنى اللغوي لمادة "قال يقول قولاً ...". وربما كان من المفيد أن نتوقف عند المصطلح الأرسطي "Categorias" وقد نقل في البداية إلى اللغة العربية، منذ وقتٍ مبكر بلفظه الأعجمي " كاتجاورياس"، ولم تلبث حركة تأصيل العلم في العربية أن سار التعبير اللغوي باتجاه قواعد ونظم العربية وقوانين صرفها ونحوها، فَتَصْبحُ الألفاظ أكثر إيحاءً في دلالتها، واسهل لفظاً في نطقها، وأدق معنى، وأجمل ذوقاً، وأكثر قابلية للاشتقاق وشيوع الاستعمال. فاستبدل بهذا المصطلح الأعجمي "كاتجورياس" مصطلح "مقولة" عربي النجار. ومن الواضح أن المعنى الاصطلاحي للفظ "مقولة" بعيد كل البعد عن المعنى اللغوي لهذه اللفظة. وقد اكتفى واضع هذا المصطلح بأن لمح علاقة ما بين المدلول الاصطلاحي والمعني اللغوي... وأصبحت هذه قاعدة من قواعد العربية في نحوها وصرفها ونظمها، وهي القاعدة التي تمدها بالنماء والحياة والتطور، لاستيعاب كل جديد، منذ القديم حتى الوقت الحاضر.

فإن مصطلح (Categorias)، قد دخل اللغات الأوروبية بلفظه اليوناني مع تحوير بسيط، فدخل الفرنسية (Catégorie) والإنجليزية باللفظ نفسه مع اختلاف في الكتابة (Category)... الخ.

ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ هذا المصطلح، نجد دلالته المنطقية هي المفهوم الأساس عند أرسطو، إذ يسمى "المقولات" محمولات، لأنها تحمل على الجوهر وهو لا يحمل على شيء. فالمقولة هي المحمول، ووجه إطلاقها على المحمول كون المحمول في القضية المنطقية محمولاً على الموضوع. فمن الواضح أن هذا المعنى الاصطلاحي لـ"مقولة" لا علاقة له مباشرة بمادة "قال: يقول قولاً... ولكن الواضح كما ذكرنا أن واضع المصطلح قد لمح علاقة ما، فأصبحت "مقولة

" بالعربية أسهل لفظاً وأكثر قابلية للاشتقاق والجمع والتثنية من الكلمة الأعجمية فنقول: مقولة، مقولتان، مقولات... الخ... وبدأ هذا المنهج يؤصل الفكر الفلسفي للحضارة العربية الإسلامية.

ويواصل ابن رشد حديثه قائلاً:

"فالمقولات هي الأجناس العالية التي تحيط بجميع الموجودات، أو المحمولات الأساسية التي يمكن إسنادها إلى كل موضوع، وعددها عند أرسطو عشرة، وهي: الجوهر، والإضافة والكم والكيف... الخ".

لقد استعمل ابن رشد المصطلحات العلمية التي استعملها المترجمون الأوائل، وأشاع بعضها المفكرون واللغويون والعلماء العرب الذين سبقوه، مثل الكندي والجاحظ والفارابي والتوحيدي والرازي وابن سينا... ولكنه متميز عن الآخرين بأنه نُدب إلى مهمة علمية لغوية محدَّدة، كانت ولا شك تشغل بال المطلعين والدارسين للفكر اليوناني والمهتمين به، وعلى وجه الخصوص بفكر أرسطوطاليس، ومؤلفاته. وأن هذه القضية كانت مطروحة في الأروقة الثقافية والفكرية والعلمية في عصر الموحدين، في منتصف القرن السادس الهجري. وأن البحث كان جارياً في تلك المجالس للبحث عن عالم أديب، يتصدى لكتب أرسطو، فيزيل قلق عبارته أو عبارة المترجمين عنه، ويوضح ما غمض في هذه الكتب، بعد أن يفهمها فهماً جيداً. وقد رأينا سابقاً أن الفيلسوف ابن طفيل هو الذي قدَّم ابن رشد لهذه المهمة الجليلة، "ليقرب مأخذها على الناس". وربما كانت "رسائل أخوان الصفا"، التي وصلت إلى الأندلس في القرن الخامس الهجري. قادمة من المشرق، مثالاً يحتذي، لتقريب الفكر الفلسفي وعلوم الأوائل لعامة الدارسين باللغة العربية، وعلى حدَّ تعبير الرواية:" تقريب مأخذها على الناس"، وقد أثبتت الدراسات أن ابن رشد الفيلسوف، كان يرمي من وراء شروحه لأرسطو ونقله علوم الأوائل، إلى تعميق نظريات أرسطو في نفوس، الدارسين والمهتمين بها من قراء العربية، وتقديمها إليهم بدقة ووضوح. ويحدِّدُ هدفه من تلخيص كتب أرسطو في المنطق فيقول:" الغرض في هذا القول تلخيص المعاني التي تضمنتها كتب أرسطو في صناعة المنطق، وتحصيلها بحسب طاقتنا، وذلك على عادتنا في سائر كتبه ولنبدأ بأول كتاب من كتبه في هذه الصناعة، وهو كتاب المقولات"،

فنقول: إن هذا الكتاب بالجملة ينقسم إلى ثلاثة أجزاء.

الجزء الأول بمنزلة الصدر لما يريد أن يقوله في هذا الكتاب، وذلك أنه يشتمل على الأمور التي تجرى مما يريد أن يقوله، في هذا الكتاب، مجرى الأصول الموضوعة والحدود.

والجزء الثاني يذكر فيه المقولات العشر مقولة مقولة، ويرسم كل واحدة منها برسمها الخاص بها، ويقسمها إلى أنواعها المشهورة، ويعطى خواصها المشهورة.

والجزء الثالث يعرف فيه اللواحق العامة والأغراض المشتركة التي تلحق جميع المقولات أو أكثرها بما هي مقولات [1].

يتحدث ابن رشد عن غرضه في "هذا القول" على حدِّ تعبيره، من خلال نظرة علمية شاملة، يحدِّد فيها منهجه في شرح كتب أرسطو في صناعة المنطق ونقلها إلى العربية. وأن هذا النقل إلى العربية يقوم من حيث الأساس على فهمها، وتقديمها واضحة إلى القارئ العربي. فاستعمل مصطلح "تلخيص المعاني"، للدلالة على الشرح والتوضيح، واستعمل مصطلح "تحصيل" للدلالة على الفهم العميق لما وراء الألفاظ. وقد اختار أن يكون كتاب "المقولات" أول كتاب من كتب أرسطو في صناعة المنطق في إطار مشروعه العلمي الكبير الذي ندبه إليه شيخه الفيلسوف ابن طفيل. وفي هذا النص يتكلم بالجملة، على حدِّ تعبيره، عن أقسام هذا الكتاب الذي سبق أن نقله إلى العربية حنين بن إسحاق عن اليونانية.

وربما كان من المفيد أن نتوقف عند النص الآتي من كتاب "المقولات".

يتحدث ابن رشد عن "الجزء الأول" فيعرض محتوياته على النحو الآتي:

"هذا الجزء فيه فصول خمسة:

الأول يخبر فيه بأحوال ما للموجودات من جهة دلالات الألفاظ عليها.

الثاني يخبر فيه ما هو الجوهر والعرض بحسب نظر هذه الصناعة فيه- أعنى كلى الجوهر وشخصه وكلى العرض وشخصه.

---

(١). ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، تحقيق محمود قاسم، مصر، / ص٧٥-٧٦.

الثالث يعرف فيه أن المحمول متى حمل على الموضوع حملاً يعرف جوهره وحمل على ذلك المحمول محمول آخر يعرف جوهره، فإن ذلك المحمول الآخر يعرف أيضاً جوهر ذلك الموضوع الأول.

الرابع يخبر فيه أي الأجناس يمكن أن تشترك في الفصول القاسمة وأيها لا يمكن ذلك فيها.

الخامس يأتي فيه بقسمة الموجودات المفردة إلى المقولات العشر على جهة المثال ويعرف فيه أن الإيجاب والسلب ليس يلحق الموجودات المفردة التي يدل عليها بألفاظ مفردة وإنما يلحق المركبة من جهة ما يدل عليها بألفاظ مركبة.

الفصل الأول:

قال: إن الأشياء التي أسماؤها متفقة — أي مشتركة- هي الأشياء التي ليس يوجد لها شيء واحد عام ومشترك إلا الاسم فقط[1]".

يتحدث ابن رشد عن "أصول الموجودات من جهة دلالات الألفاظ عليها"، وبلغة علمية عربية واضحة ودقيقة يستعمل مصطلحات "الجوهر" و"العرض"، على وفق نظرة صناعة المنطق، وما يخبر فيه عن "الجوهر وشخصه" و"العرض وشخصه". ويستعمل مصطلحات "الموضوع" و"المحمول"، والعلاقة التي تؤدي إلى معرفة "الجوهر"... ويستعمل مصطلح "الأجناس"، وأيها يمكن أن تشترك في "الفُصول القاسمة"... ويتحدث عن "الموجودات المفردة وانقسامها إلى "المقولات العشر"... ويستعمل مصطلحات " الإيجاب" و" السَّلْب، " وعلاقتها بـ" الموجودات المفردة".

فابن رشد في هذا العرض يحاول الكشف عن أصالة ما يحتويه هذا الجزء، ويضع الدارس والباحث، في عمق فهم الأفكار العامة، التي يود أرسطوطاليس عرضها في هذا الجزء. وهنا نلاحظ كيف تتداخل أفكار ابن رشد وأفكار أرسطو، من خلال "اللغة الفلسفية"

---

(١) . ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، ص٧٧.

ومصطلحاتها، التي كان لابن رشد دور مرموق في إشاعة استعمالها... وإزالة القلق عنها، وصياغتها في تعابير سهلة الألفاظ واضحة المعاني ودقيقة الدلالة، تجعل الفكر الفلسفي قريب المأخذ للناس، على حدٍّ تعبيره، سائغاً لدى الباحثين والدارسين.

ويبدأ ابن رشد، تحت عنوان "الفصل الأول" بعبارة :"قال: إن الأشياء التي أسماؤها متفقة – أي مشتركة- هي الأشياء التي ليس يوجد لها شيء واحد عام ومشترك إلا الاسم فقط"... ومن الواضح أن ابن رشد عندما يستعمل "قال" يعني "قال أرسطو".

وربما كان من المفيد أن نتوقف عند النص الآتي أيضاً من كتاب المقولات:"القسم الرابع" "القول في الكيفية":

"وما يقوله في هذا الباب منحصر في أحد عشر فصلاً.

الأول يحدد فيه هذه المقولة ويعرف أنها تنقسم إلى أجناس أول.

الثاني يعرف فيه الجنس المسمى من هذه الأجناس باسم الملكة والحال. ويعرف ما منها يختص باسم الملكة – وهو الذي يقال عليه الكيف في المشهور- وما منها يختص باسم الحال وأنه إن قيل عليها "كيف" فلكونها من طبيعة واحدة.

الثالث يعرف فيه الجنس الثاني من أجناس هذه المقولة – وهو الذي يقال بقوة طبيعية ولا قوة طبيعية.

والرابع يعرف فيه الجنس الثالث من أجناس هذه المقولة وهي الكيفية الانفعالية والانفعالات، ويعرف لم سميت كيفية انفعالية، ويعطى الفرق بين التي تسمى منها انفعالية والتي تسمى انفعالات، وأن اسم الكيف في المشهور إنما ينطلق على الانفعالية للمعنى الذي من قبله ينطلق على الملكة أكثر ذلك من انطلاقه على الحال.

الخامس يعرف فيه الجنس الرابع من أجناس هذه المقولة، وهي الكيفية الموجودة في الكم بما هو كم.

السادس يتشكك فيه في المتخلخل والمتكاثف والخشن والأملس، هل هما داخلان تحت هذه المقولة أم تحت مقولة الوضع؟.

السابع يعرف فيه أن الأشياء المتصفة بالكيفية هي التي يدل عليها بأسماء مشتقة من المثل الأول الدالة على تلك الكيفية.

الثامن يعرف فيه أنه قد يوجد التضاد في الكيف لكن في بعضها، وأنه إذا كان أحد المتضادين في الكيف لزم أن يكون الضد الآخر في الكيف.

التاسع يعرف فيه أن الكيف قد يقبل الأقل والأكثر وأن ذلك ليس في كله.

العاشر يعرف فيه أن الشبيه وغير الشبيه هي الخاصة التي تخص هذه المقولة.

الحادي عشر يتشكك فيه في أشياء كثيرة ذكرت في هذا الباب وذكرت أيضاً في الإضافة، ويعطى من أين يعرض ذلك لها وأن ذلك لها بجهتين.

الفصل الأول

قال: وأسمى الكيفية الهيئات التي بها يجاب في الأشخاص كيف هي. وهذه الكيفيات تقال على أجناس أول مختلفة.

الفصل الثاني

فأحدها الجنس من الكيفية التي تسمى ملكة وحالا. والملكة منها تخالف الحال في أن الملكة تقال من هذا الجنس على ما هو أبقى وأطول زماناً، والحال على ما هو وشيك الزوال. ومثال ذلك العلوم والفضائل، فإن العلم بالشيء إذا حصل صناعة كان من الأشياء الثابتة العسيرة الزوال، وذلك ما لم يطرأ على الإنسان تغيير فادح أو غير ذلك من الاشتغال بالأمور الطارئة التي تكون سبباً مع طول الزمان، لذهول الإنسان عن العلم ونسيانه. فأما الحال، فإنها تقال من هذا الجنس على الأشياء السريعة الحركة السهلة التغير — مثل الصحة والمرض، والحرارة والبرودة التي هي أسباب الصحة والمرض. فإن الصحيح يعود بسرعة مريضاً والمريض صحيحاً ما لم تتمكن هذه فيعسر زوالها. فإنه إذا كان الأمر كذلك، كان للإنسان أن يسميها ملكة.

قال: ومن البين أن اسم الملكة إنما يدل به في اللسان اليوناني على الأشياء التي هي

أطول زماناً في الثبوت وأعسر حركة، فإنهم لا يقولون فيمن كان غير متمسك بالعلم تمسكاً يعتد به أن له ملكة. على أن من كان بهذه الصفة فله حال في العلم إما شريفة وإما خسيسة. والملكات هي أيضاً بجهة من الجهات حالات، وليست الحالات ملكات. وأيضاً فإن الملكات إنما هي أولاً حالات ثم تصير بآخرة ملكات. وهذا الجنس، كما قيل، هو الهيئات الموجودة في النفس وفي المتنفس من جهة ما هو متنفس.

الفصل الثالث

قال: وجنس ثان من الكيفية، وهو الذي به تقول في الشيء: إن له قوة طبيعية أو لا قوة له طبيعية — مثل قولنا مُصُحِّح وممراض. وذلك أنه ليس يقال في الشيء إنه مصحِّح أو ممراض أو ما أشبه ذلك من قبل أن له حالاً ما في النفس أو في المتنفس بما هو متنفس، بل من قبل ما له قوة طبيعية أو لا قوة طبيعية — أعنى بلا قوة طبيعية أن يفعل بعسر وينفعل بسهولة، وبقوة طبيعية أن يفعل بسهولة ولا ينفعل إلا بعسر. مثال ذلك أنه يقال مصحِّح من قبل أن له قوة على أن لا ينفعل عن الأمراض والآفات، ونقول محاضر ومصارع من جهة أن له قوة يفعل بها بسهولة وينفعل بعسر، ونقول ممراض من قبل أن لا قوة له طبيعية على أن لا ينفعل عن الأمراض. وكذلك الأمر في الصُّلب واللين، فإنه يقال صُلْب من جهة أن له قوة على أن لا ينفعل بسهولة ويقال ليِّن من قبل أنه لا قوة له على أن لا ينفعل بسهولة"[1].

فابن رشد يتحدث عن ما يقوله أرسطو في هذا الباب، وهو في ذلك يتبع منهجه في عرض ما فهمه من أقوال أرسطو في هذا الموضوع، عرضاً عاماً شاملاً، دقيقاً وواضحاً... وعندما يبدأ الحديث عن "الفصل الأول" يستعمل عبارة: "قال"، ويعني بذلك "قال أرسطو". وعرَّف الكيفية أنها الهيئات التي بها يجاب في الأشخاص كيف هي. وهذه الكيفيات تقال على أجناس أول مختلفة. فالمصطلح "الكيفية" اشتق من "كيف" وجمع على "الكيفيات"... ويستعمل في مجال "الكيفية" مصطلح "ملكة" ومصطلح "الحال" وهنا نشعر بتداخل في الصياغة بين نص أرسطو وما يقوله ابن رشد...

---

(١) ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، ص ١٢٠- ١٢٣.

وبعد هذا الشرح الواضح، القريب المأخذ مثل قوله:"فإن الصحيح يعود بسرعة مريضاً والمريض صحيحاً... الخ"، نراه ينتقل إلى العبارة "قال" التي تدل في منهجه على نص أرسطو.

وإن النظرة المدققة في "مقولات" أرسطو" تبين مدى أثر اللغة اليونانية ومصطلحاتها، في وضع المصطلح عند أرسطو، مثال ذلك:" قال (أي أرسطو):" ومن البين أن اسم الملكة إنما يُدَلُّ به في اللسان اليوناني على الأشياء التي هي أطول زماناً في الثبوت وأعسر حركة...الخ". وهذا مثال آخر، في أثر القواعد الصرفية في المصطلح، إذ يورد ابن رشد في ا"القسم الخامس" من كتاب المقولات، وتحت عنوان "القول في يَفْعَلُ ويَنْفَعِلُ"، النصَّ الآتي:

"قال (أي أرسطو): وقد يقبل يفعل وينفعل التضاد والأكثر والأقل. فأن يسخن مضاد لأن يبرد ويبرد مضاد ليسخن ويلتذ مضاد لأن يتأذى. فيكون هذا الجنس يقبل التضاد ويقبل الأقل والأكثر. فإن قولنا في الشيء يسخن قد يكون أكثر وأقل، فإن الشيء قد يسخن أكثر وأقل وكذلك قد يتأذى أكثر وأقل.

قال: فهذا مبلغ ما نقوله في هذه المقولة في هذا الموضع[1].

فمن الواضح أن ابن رشد يحاول أداء هذه المصطلحات التي وضعها أرسطو باللغة اليونانية بمقابلات لها من الصيغ الصرفية العربية "يَفْعَلُ يَنْفَعِلُ"، وإن هذا المنهج في التعامل مع المصطلحات، سواء أكانت مما استعمله ابن رشد وأشاعه أم كانت مما وضعه، فإن أثر القواعد اللغوية والنحوية والصرفية واضحة، في أثناء البحث عن مقابلاتها باللغة العربية، ومن أمثلة ذلك نورد هذا النص:

"القسم السادس، في مقولة الوضع، قال: وقد ذكرت الأشياء ذوات الوضع في باب المضاف وقيل إنها الأشياء التي أسماؤها مشتقة في مقولة الإضافة – مثل المضطجع والمتكئ، فإن الاضطجاع والاتكاء من مقولة المضاف، والمضْطَجِعُ والمتكئ هو من هذه المقولة.

قال: وأما سائر المقولات التي عددنا –وهي مقولة: "متى" ومقولة: "أين" ومقولة:"له"– فليس يقال فيها هاهنا شيء أكثر مما تمثلنا به في هذا الكتاب في أوله إذ كانت

(١) . ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، ص١٣٢.

واضحة– مثل قولنا إن "له" يدل على المتَنَعِّل والمتسلِّح، و"أين" مثل قولنا فلان في السوق، وسائر ما تمثلنا به فيها. فإن هذا القول في هذه الأجناس كاف بحسب المقصود هاهنا[1].

يقول أرسطو أنه ذكر الأشياء ذوات الوضع في باب المضاف، وقيل إنها الأشياء التي أسماؤها مشتقة من مقولة "الإضافة"، وأورد أمثلة. وقد وضع ابن رشد مقابلاتها باللغة العربية وهي: "المضْطجعُ والمتَّكئ". ونحن أن نتساءل عن مدى علاقة "المقابل باللغة العربية "الاضطجاع والاتكاء" بالمصطلح اليوناني، الذي يُعْتبر "من مقولة الإضافة"، على حدِّ تعبير النص...

وربما كان من المفيد في هذا الباب أن نورد النص الآتي الذي جاء تحت عنوان: "القول في معنى "معاً":

"ومعا" يقال على وجهين. أعرفها والمقول فيها بإطلاق، هما الشيئان اللذان يكون تكونهما في زمان واحد، فإنهما لما لم يكن أحدهما متقدما للثاني بالزمان قيل إنهما معاً بالزمان. والثاني ما يقال فيهما: إنهما معاً بالطبع، وهذا على ضربين. أحدهما الشيئان اللذان يتكافآن في لزوم الوجود، أي متى وجد أحدهما وجد الثاني من غير أن يكون أحدهما سبباً لوجود صاحبه، مثل الضعف والنصف، فإنه متى وجد الضعف وجد النصف ومتى وجد النصف وجد الضعف، وليس واحد منهما سبباً للآخر. والضرب الثاني: الأنواع القسيمة لجنس واحد – أعني التي ينقسم بها الجنس قسمة أولى، مثل الطائر والسابح والمشاء. فإن هذه هي أنواع قسيمة الحيوان الذي هو جنسها، وليس واحد منها متقدما على صاحبه ولا متأخراً. ولذلك قد يقال في أمثال هذه: إنها معاً بالطبع. وقد يمكن في كل واحد من هذه الأنواع القسيمة أن تقسم أيضاً إلى أنواع أخر، فتكون أيضاً تلك معاً بالطبع – مثل قسمتنا المشاء إلى ما له رجلان وإلى ما له أربعة أرجل وإلى ما له أرجل كثيرة وإلى ما لا رجل له. فأما أجناس هذه الأنواع فهي متقدمة عليها التقدم الذي بالطبع، وذلك أنها لا تكافئها في الوجود. فإنه متى وجد السابح وجد الحي، وإذا كان الحي موجوداً فليس يلزم أن يكون السابح موجوداً.

---

(٢) . ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، ص١٣٣.

فالتي يقال: إنها معاً بالطبع، هما كما قلنا صنفان. أحدهما الشيئان اللذان يتكافآن في لزوم وجود أحدهما عن الثاني من غير أن يكون أحدهما سبباً للثاني. والثاني الأنواع التي هي قسيمة، أي كل واحد منها قسيم لصاحبه والتي يقال إنها معاً بإطلاق هي التي تكونها في زمان واحد"[٢].

ومما نلاحظه أن ابن رشد، يبدأ النص، دون أن يذكر عبارة "قال" التي تعني أن النص ينقله عن أرسطو، وهنا يَلُفُّ الغمُوض الحد الذي يفصل قول ابن رشد عن قول أرسطو...

وأخيراً نشير إلى مصطلح "له" الذي استعمله ابن رشد، في القسم الخامس تحت عنوان "القول في "له":"وله" يقال على أنحاء شتى أحدها على طريق الملكة والحال، فإنا نقول: إن لنا علماً وإن لنا فضيلة. والثاني على طريق الكم، فإنه يقال: إن له مقداراً طوله كذا وكذا. والثالث على ما يشتمل على البدن، إما على كله — مثل الثوب والطيلسان- وإما على جزء منه- مثل الخاتم في الإصبع والنعل في الرجل. وهذا المعنى الثالث هو المخصوص بمقولة "له" عند المفسرين. والرابع على نسبة الجزء إلى الكل — مثل قولنا: له يد وله رجل. والخامس جرت عادة اليونانيين باستعماله، وهو نسبة الشيء إلى الوعاء الذي هو فيه، مثل الحنطة في الكيل والشراب في الدن. فإنهم كانت جرت عادتهم أن يقولوا الدن له شراب والكيل له حنطة. والسادس على طريق الملك، مثل قولنا": له مال وله زوجة وله بنت.

قال: إلا أن هذا المعنى من معاني "له" هو أبعد هذه الوجوه التي يقال عليها "له" فإن قولنا: له امرأة ليس يدل به على شيء أكثر من المقارنة.

قال: ولعله قد يظهر لقولنا: "له" معنى آخر غير هذه التي عددناها. إلا أن المعاني المشهورة من ذلك هي هذه التي عددناها، وهي بحسب هذه الجهة مستوفاة"[١].

ونحن أيضاً قد نتساءل عن المصدر اللغوي اليوناني الذي أوحى لأرسطو لوضع هذا المصطلح. وغني عن البيان أن المقابل العربي لهذا المصطلح هو "له " اللام الجارة التي تدخل

---

(١). ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، ص١٤٨- ١٤٩.

(١) . ابن رشد، تلخيص كتاب "المقولات"، ص١٥٣-١٥٤.

على الضمير، وربما تأثرت بالمقابل اللغوي اليوناني من حيث الدلالة ومن حيث القاعدة اللغوية، إذ يبدأ حديثه:"وَلَه" يقال على أنحاء شتى... الخ وهنا في هذه الفقرة يتداخل كلام ابن رشد مع كلام أرسطو، وعندما ينتقل إلى الفقرة التالية نجده يستعمل عبارة "قال" التي تعني على وفق منهجه قطعاً بأن النصَّ لأرسطو...

إن لغة ابن رشد وأسلوبه وطريقته في استعمال المصطلحات وإشاعة استعمالها أو وضعها في "تلخيص كتاب المقولات" يصدق من حيث المنهج على جميع الكتب التي نهد إليها، سواء أكان ذلك في فكر أرسطو بخاصة أم في الفكر اليوناني وعلوم الأوائل بعامة.

وإن الأمثلة التي نراها بالمشاهدة في العصر الحديث، في وضع المقابلات العربية لكثير من المصطلحات العلمية والفكرية والتقنية الحديثة، وإن تفاوت معاني الأمثلة التي تترجم من الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية من حيث دلالاتها بلغاتها وبيئاتها الاجتماعية والثقافية الأصلية، تكون واضحة في كثير من الأحيان، لاختلاف طبيعة اللغة والبيئة والعادات والمفاهيم. فهذه الظاهرة تعزز الرأي القائل، "بأنه قد تبيَّن للباحثين اللسانين اليوم، أن المقولات الأرسطية تجريد فلسفي لمقولات الصرف والنحو اليونانين... وأن الطبيعة اللسانية للمقولات هي السبب الحقيقي في التفاوت الملحوظ بين معاني المقولات كما أثبتها أرسطو وبين الأمثلة العربية التي كانت نقلاً لأمثلة على هذه المعاني... [1]

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد خط ابن رشد طريقاً واضحاً للفكر الفلسفي، في حضارة عربية إسلامية إنسانية، كانت أساساً لبناء النهضة الأوروبية الحديثة، وعلى الخصوص في حقل تاريخ الفكر العلمي ومنهجه...وسنتوقف عند بعض النصوص من كتاب "الكليات في الطب" ندرس من خلالها المصطلحات العلمية عند ابن رشد.

ففي حديثه في الكتاب الأول عن "تشريح الأعضاء" يختم القول عن العظام، بالنص الآتي:

---

(١) انظر: ابن رشد، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، (٢١- ٣٢ ابريل عام ١٩٧٨)، ص٢٠٢—٢٠٣، بحث الدكتور طه عبد الرحمن.

"فمبلغ جميع العظام —على رأي جالينوس– مئتا عظم وثمانية وأربعون عظماً، سوى الأعظم الصِّغار التي حُشي بها خَلَل المفاصل، وتُسمَّى السُّمْسمَّية، وسوى عظم الحنجرة والعظم الغضروف الذي يقول بعض المشرِّحين، بأنه في القلب. وإنما أضربنا عن أشكال اتصالات هذه العظام بعضها ببعض، لأن الذي يُتَصَوَّر منها بالقول نزر، بالإضافة إلى ما هو عليه الأمر في نفسه ..." [1].

فابن رشد يستشهد برأي "جالينوس" وهو مطلع على المصادر الأمهات في الطب عند اليونانيين، ولكن أسلوبه واختيار ألفاظه ووضع مصطلحاته، يختلف اختلافًا جوهرياً، عما شهدناه في عمله لتقديم مؤلفات أرسطو إلى القارئ العربي، بعد إزالة الغموض والإبهام عنها. فقد استنطق ابن رشد في مهمته التي أشرنا إليها، نصوص أرسطو، وحاول ترجمتها ترجمة جديدة، ومع ذلك فإن لغة ابن رشد تختلف في مجال التأليف عما هي عليه في مجال الترجمة وإزالة الإبهام والتخلص من قلق العبارة... وكذلك الشأن نفسه، فيما استعمله من مصطلحات، وإن كان منهجه في ذلك يقوم على شرح معنى المصطلح من خلال السياق في معظم الأحوال. مثال ذلك، فإن مصطلح "السُّمْسُمِيَّة"، يشرح معناه بقوله في هذا النص: "الأعظم الصغار التي حُشي بها خَلَل المفاصل"... وهذا النهج يكاد يكون عاماً عند العلماء والمفكرين في المشرق وفي المغرب والأندلس... وبذلك لم يكن توحيد المصطلحات، وإيجاد لغة علمية موحَّدة، لتشكل قضية تحول بين اتصال العلماء بعضهم ببعض، على الرغم مما كانت عليه وسائل الاتصال والتقنيات والطباعة التي كانت تقوم على النسخ اليدوي... ونلاحظ في هذه اللغة السهلة المطواعة، أن ابن رشد مثلاً يستعمل في الفقرة ذاتها:" أعظم وعظام جمع "عظمة"...

وفي حديثه عن "العروق: يقول:" والعروق المحسوسة صنفان: ضوارب وغير ضوارب. أما العروق الضوارب، فهي مؤلفة — إلا واحداً– من طبقتين متشابهتي الأجزاء. الداخلة منهما ليفُهما ذاهب عرضاً، وهي أصلب وأغلظ، والخارجة ليفُها ذاهب بالطول.

---

(٢) . ابن رشد، الكليات في الطب، بيروت، عام ١٩٩٩، ص ١٣٨.

وهذه العروق الضوارب، يظهر بالحس أنها خارجة من القلب، وذلك أنه يخرج من تجويفه الأيسر شريانان: أحدهما أصغر وطبقته واحدة، وهي أرقُّ من إحدى طبقتي سائر الشرايين، وهذا العرق يدخل إلى الرئة، وينقسم فيها وأما الآخر فهو أكبر كثيراً، وهو المعروف بالأبهر. وهذا حين يطلع تتشعَّب منه شعبتان: فتصير إحداهما إلى التجويف الأيمن من تجويفي القلب، وهي أصغر الشعبتين، والأخرى تستدير حول القلب كما يدور، ثم تدخل إليه وتتفرق فيه، ثم إن القسم الباقي من العرق الثابت من تجويف القلب الأيسر — بعد انشعاب هاتين الشعبتين منه– ينقسم قسمين. فيأخذ أحدهما إلى أسافل البدن، ويأخذ الأخر إلى أعاليه"[1].

لقد استعمل في هذا النص مصطلحات "العروق المحسوسة"، و"العروق الضوارب" و" العروق غير الضوارب". ويحرص على شرحٍ وافٍ ووصف متكامل لمدلول هذه المصطلحات بلغة سهلة تقرب من لغة الحديث، ولكنها واضحة ودقيقة، مرتبطة بالوصف الحسيِّ، وأحياناً بالنقل عن الذين قاموا بالتشريح... ويستعمل مصطلح "الأبهر"، ولكنه يورد هذا المصطلح بعد أن يَشْرْح مدلوله، ويقول:" وهو المعروف بالأبْهر" ويستمر ابن رشد في منهجه هذا أسلوباً ولغةً واصطلاحاً، فيقول:" والقسم الآخذ إلى أعالي البدن تنقسم منه في قصْده– في الجانبين– شعب تتصل بما يحاذيها من الأعضاء، حتى إذا حاذى الأبط خرجت منه شعبة مع العرق الإبطي، الغير ضارب إلى اليد، وتنقسم فيه كَتَقَسُّمِهاَ آنفاً، وتتصل فيه شعب صغار بالعضل الظاهر والباطن من العضد، وهو مع ذلك غائر مندفن ... ولا يزال تحت الإبطي ملاصقاً له حتى ينزل عن المرفق قليلاً، ثم إنه يغوص أيضاً في العمق وتتشعب منه شعب سفرية تتصل بعضل الساعد...[2] .

ومن خلال هذه اللغة الفصيحة السهلة، التي يصور فيها ابن رشد دقائق الأفكار العلمية، يؤصل الفكر العلمي ويجعله سائغاً وفي متناول جميع الدارسين... وقد لا يشعر القارئ

---

(١) . ابن رشد، الكليات في الطب، ص١٣٨– ١٣٩.

(٢) . المصدر نفسه.

العادي لأول وهلة بأن هناك مصطلحات غامضة يعسر فهمها إلا على المتخصصين، لأنه يخلص إلى المصطلح بأن يضعه في سياقه توضيحاً وشرحاً، بل وتصويراً بحيث يكاد يتابع القارئ عملية التشريح من خلال لغةٍ سهلة واضحة ودقيقة... فقد استعمل مصطلح "تحت الإبطي" و" شعب سفريَّة" و"الزند الأعلى" وأن "العرق في هذا المكان" هو على حدِّ تعبيره العرق" الذي يجسُّه الأطباء" ويواصل ابن رشد في هذا النص، فيقول:" وإذا بلغ القسم الأعلى موضع اللُّبَّة، انقسم قسمين آخرين، وجاوز أحدُ هذين القسمين الوَدَج الغائر، ومرَّ صاعداً حتى يدخل القحف... وإذا دخل القحف انقسم هناك تقسُّماً كثيراً، وصار منه الشيء المعروف بالشبكة المفروشة تحت الدماغ، ثم إنه بعد تقسُّمه يجتمع ويغُور، فيخرج من هذه الشبكة عرقان متساويان في العِظَم، كحالها قبل الانقسام، ويدخلان حينئذٍ جرْم الدماغ، فينقسمان فيه"[1].

وغني عن البيان، أننا أمام لغة عربية فصيحة، سهلة المأخذ، يفهمها المثقف العربي العادي في الوقت الحاضر، فضلاً عن الدارس والمتخصص في علم التشريح، على الرغم من الفاصل الزمني بيننا وبين الفيلسوف الطبيب ابن رشد الذي يربو على تسعة قرون. ولا شك أن التكوين اللغوي لابن رشد وأمثاله من العلماء والفلاسفة العرب الذين سبقوه، مثل الكندي والفارابي وابن سينا، ومن جاؤا بعده في الأندلس والمغرب والمشرق الإسلامي، كان له دور كبير في نشوء حضارة عربية إسلامية أصيلة ومبدعة. وكان النصُّ القرآني المحور الأساس في تربية الناشئة والشادين في حلقات المساجد ودور العلم في دار الإسلام، وكان لهذا العامل أثر كبير في لغة ابن رشد، عندما واجه قلق العبارة عند المترجمين الأوائل، مثل جوروجيوس بن جبرائيل، وابنه بختيشوع وأولاده المتميزين، وسابور بن سهل، وجبرائيل الكحَّال، وماسوية أبو حنا، ويوحنا بن ماسوية، وحنين ابن اسحق، واسحق بن حنين، وقسطا بن لوقا البعلبكي، والبطريق، ويحي بن البطريق... ومن الواضح أن هؤلاء العلماء لم يدخل النص القرآني محوراً أساسياً في تكوينهم الثقافي واللغوي... وقد أدى ذلك إلى قلق العبارة وغموض الأفكار الذي

(١) . ابن رشد، الكليات في الطب، ص١٣٩.

شكا منه أمير المؤمنين الموحدي، على لسان ابن طفيل...

وإذا أمعنا النظر في هذا النص، نجد أن ابن رشد قد واجه المصطلحات العلمية على وفق منهجه الذي أشاعه في الكتب التي ترجمها وفي مؤلفاته في الطب والفكر الإسلامي والفقه وفي علم الكلام...

فقد استعمل في هذا النص مصطلح:"موضع اللُّبَّة" و"الودج" و"القحف" و"الشبكة" و"جرْم الدماغ"... ويحرص أن تكون هذه المصطلحات واضحة الدلالة في السياق. "فالشبكة" مثلاً هي "المفروشة تحت الدماغ"... ويعبر عن دقائق المعاني بلغة سهلة تدلُّ على تمكنه العميق لهذه اللغة، بعيداً عن الأغراب والتقعر والغموض. فيستعمل مثلاً في هذا النص، وبصورة سلسة صيغاً صرفية متعددة لمصدر "انقسم" فيقول:"انقسم انقساماً": ويقول:" تقسَّم تقسُّماً" ويتحدث عن "التقسُّم"... وكل ذلك بلغة صحيحة وسهلة، تقرب من اللغة المحكية في أيامنا هذه.

وفي مجال "الكليات في الطب" نكتفي أخيراً بإيراد النصِّ الآتي في" العروق غير الضوارب" يقول:"والعروق غير الضوارب هي من طبقة واحدة وتوجد بالحس متشعبة من عرق عظيم في محدب الكبد يسمونه الأجوف، وإذا طلع هذا العرق لم يمر كبير شيء حتى ينقسم بقسمين: أحدهما – هو الأعظم- يأخذ إلى أسافل البدن؛ والثاني يأخذ إلى أعالي البدن. وهذا (القسم) الأعلى يمر حتى يلاصق الحجاب. وينقسم منه هنالك عرقان يتفرقان في الحجاب. ثم ينفذان الحجاب. حتى إذا نفذاه انقسمت منهما عروق دقيقة واتصلت بالغشاء الذي يقسم الصدر بنصفين وبغلاف القلب وبالغدة التي تسمى التُّوتة وتفرقت فيها؛ ثم تتشعب منه شعبة عظيمة تتصل بالأذن الأيمن من أذني القلب. وتنقسم هذه الشعبة ثلاثة أقسام: أحدها يدخل التجويف الأيمن من تجويفيْ القلب، وهو أعظم هذه الأقسام (الثلاثة)؛ والثاني يستدير حول القلب من ظاهره وينبث فيه كله؛ يتصل بالناحية السفلى من الصدر، ويغذو ما هنالك من الأجسام.

وإذا جاوز (هذا القسم الأعلى) القلبَ مر على استقامة إلى أن يُحاذي الترقُّوتين. ويتقسّم منه في مسلكه هذا شعبٌ صغار في كل واحد من الجانبين. وتخرج منها شعب إلى

العضل الخارج المحاذي لتلك الأعضاء الداخلة. وعند محاذاته للإبط يخرج منه إلى خارج، شعبة عظيمة تأتي اليدين من ناحية الإبط. وهو المسمى الباسليق. فإذا حاذى من الترقوة الوسط — وهو موضع اللبة– انقسم قسمين: فصار أحدهما إلى ناحية اليمين، والآخر إلى ناحية اليسار. وانقسم كل واحد من هذين القسمين إلى قسمين: فركِب أحدُ القسمين الكتفَ وجاء إلى اليد من الجانب الوحشي. وهو العرق المسمى القيفال؛ وانقسم الثاني قسمين، في كل جانب يمر أحدهما غائراً صاعداً في العنق حتى يدخل القحف. وفي مروره في العنق إلى أن يدخل الدماغ. تتشعب منه شعب صغار تتصل بما في العنق من الأعضاء الداخلة، ويسمى هذا القسم الودج الغائر؛ وأما الثاني، فيمر صاعداً في الظاهر حتى ينقسم في الوجه والرأس والعين والأنف، وهو الودج الظاهر.

وتتشعب من العرق الكتفي في مروره بالعضد شعب صغار تنبث في العضد. وتتشعب أيضاً في الإبطي شعبٌ صغار تتصل أيضاً بباطن العضد. وإذا قارب العرقُ الكتفي والعرق الإبطي مفصل المرفق انقسما: فأحد أقسام العرق الكتفي يمازج قسما من العرق الإبطي؛ ويتحدان فيكون منهما عند المرفق العرقُ المسمى الأكحل. والقسم الثاني من أقسام العرق الكتفي يمتد في ظاهر الساعد، ويركَب بعد ذلك الزندَ الأعلى، وهو المسمى حبل الذراع. وقسم من العرق الإبطي وهو الأسفل مكاناً، يمر في الجانب الداخل من الساعد حتى يبلغ رأس الزند الأعلى، ويكون من بعض شعبه العرق الذي بين الخنصر والبنصر، المسمى الأُسَيْلم.

وأما القسم الذي يأخذ إلى أسافل البدن، فإنه يركَب خرز الظهر آخذاً إلى أسفل. وتتشعب منه أولاً شعبٌ تأتي لفائفَ الكلى وأغشيتها والأجسام التي بالقرب منها؛ ثم تتشعب منه شعبتان عظيمتان تدخلان في تجويف الكلى؛ ثم شعبتان تصيران إلى الأنثيين منه عند كل فقارة عرقان يمران في الجانبين ويتصلان بالأعضاء القريبة منهما، ما كان (منها) داخلا كالرحم والمثانة، وما كان منها خارجاً كمراقّ البطن والخاصرتين؛ حتى إذا بلغ (= هذا القسم الآخذ إلى أسافل البدن) آخر الخرز انقسم قسمين: يأخذ أحدهما إلى الرجل اليمنى، والآخر إلى اليسرى. وانشعبت منه شعب تتصل بعضل الفخذين، منها غائرة ومنها ظاهرة؛ حتى إذا بلغ

منتهى الركبة انقسم ثلاثة أقسام: فمر قسم منها في الوسط واتصل بشعب له بجميع عضل الساق الداخل والخارج؛ ومر قسم في الجانب الداخل من الساق حتى ظهر عند الكعب الداخل، وهو الصافن؛ والقسم الآخر يمر في الجانب الظاهر من الساق، وهو غائر إلى ناحية الكعب الخارج، وهو عرق النَّسَا.

وتتشعب من كل واحد من هذين (= القسمين الآخذ أحدهما إلى الرجل اليمنى والآخر إلى اليسرى) عند بلوغه القدم شعبٌ تتفرق في القدم، فتكون الشعب التي هي من القدم من ناحية الخنصر والبنصر من شُعب عرق النسا، والتي في (ناحية) الإبهام من شعب الصافن"[1].

يواصل ابن رشد الفيلسوف أسلوبه في عرض دقائق المعاني، بلغة سهلة وواضحة ودقيقة، ويواصل منهجه في استعمال المصطلحات العلمية وإشاعتها من خلال السياق والوصف والتعريف، وهي الطريقة التي اتبعها الفارابي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم من أعلام الحضارة العربية الإسلامية... ونحن إذا أمعنا النظر في هذا النص، نجد أنه يبني على ما سبق تحديده من مصطلحات علمية، ويعمل على تحديد أو وصف المصطلحات التي ترد عنده لأول مرة... فيستعمل مثلاً مصطلح "العروق غير الضوارب" على وفق مدلوله الذي حدده سابقاً... وهكذا... يستعمل "محدب الكبد" ويعرفه بأنه الذي يسمونه "الأجوف"، ويستعمل مصطلح "الحجاب"، ويستعمل مصطلح "التُّوتة" بعد أن يصف موضعها ويذكر أنها "غدة" فمن الواضح أنها من خلال هذا الوصف تقع في أسفل العنق وأعلى محزم الصدر ...

وهنا نجد أنفسنا أمام قضية مهمة. فقد يختلف العلماء حول وضع بعض المصطلحات اجتهاداً، ولكن هذا المنهج في التعامل مع المصطلح، يجعل هذه المصطلحات المختلفة مفهومة عند الدارسين في مختلف الأقطار. فقد نجد بعضهم مثلاً يسمى هذه الغدة "الغُدَّة الثيموسيَّة" وبعضهم الآخر "لوز الصدر"[1]، وكذلك المصطلحات "الأذن الأيمن" و "أذني القلب"، و "التجويف الأيمن" و" تجويفي القلب". ويستعمل مصطلح "الترقوتين"،

(١) . انظر: ابن رشد، الكليات في الطب، ص ٦٠٥.

و"البَاسَليق" و"الجانب الوحشي" و"القَيْفَال" و" الودج الغائر" و"الودج الظاهر" و "العرق الكتفي" و" العرق الإبطي" و"مفصل المرفق" و" الأكحل" و"حبل الذراع" و" الأُسَيْلم" و "خرز الظهر" و"لفائف الكلُى" و"أغشية الكلى" و" تجويف الكُلى" و" مراق البطن" و "الخاصرتين" و "عضل الفخذين" و"الغائرة والظاهرة" و"الركبة" و"عضل الساق" و"الصافن" و"عرق النسا" و" شعب عرق النسا" و" شعب الصافن"...

ونحن إذا دققنا النظر في هذه المصطلحات العلمية، نجدها مفهومة الدلالة، ولا تكوِّن مشكلة لدى الدارس الشادي والمتخصص في هذا العلم...، فالمصطلح يفهم من تحديده أو وصفه أو من خلال السياق، ولذا كانت هذه المؤلفات تجد طريقها إلى الباحثين والدارسين والعلماء في مراكز الإشعاع الثقافي في الدولة الإسلامية، وفي الفترات التي تناثرت فيها هذه الدولة إلى كيانات سياسية مختلفة ومتعادية في كثيرٍ من الأحيان. فالطريق سابلة بينها من بغداد إلى قرطبة وإلى دمشق وإلى القاهرة وإلى القيروان وبجاية وتلمسان وجندي سابور وبقية مراكز الإشعاع الثقافي. فاللغة العربية واحدة، ومحور تكوين الناشئة النص القرآني، ولم تكن المصطلحات العلمية لتشكل عائقاً، على وفق هذا المنهج العلمي.

وكان ابن رشد يفزع إليه في الفتوى في الفقه، كما يفزع إليه في الفتوى في الطب، وقد كتب مصنفه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" في فترة النضج الفكري، وبعد أن كتب "الكليات في الطب وكتب تلخيص المقولات لأرسطو. ففي الفصل الذي كتبه تحت عنوان:" القول في الهدي" يختم قائلاً:" وكان الفراغ منه يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى الذي هو عام أربعة وثمانين وخمسمائة، وهو جزء من كتاب بداية المجتهد الذي وضعته منذ أزيد من عشرين عاماً أو نحوها"[1]. وهذا يعني أنه وضع كتابه "بداية المجتهد" في حوالي عام ٥٦٤هـ.

وحدَّد ابن رشد غرضه من وضع كتاب "بداية المجتهد" بأنه وضعه كي يثبت فيه لنفسه على جهة التذكرة من مسائل الأحكام المتفق عليها والمختلف فيها بأدلتها، والتنبيه على نكت الخلاف فيها، ما يجري مجرى الأصول والقواعد لما عسى أن يرد على المجتهد من المسائل

(١) . ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج١ص٣٨٠.

المسكوت عنها في الشرع. وهذه المسائل في الأكثر هي المسائل المنطوق بها في الشرع أو تتعلق بالمنطوق به تعلقاً قريباً، وهي المسائل التي وقع الاتفاق عليها، أو اشتهر الخلاف فيها بين الفقهاء الإسلاميين من لدن الصحابة رضي الله عنهم، إلى أن فشا التقليد[1].

وربما كان من المفيد أن نتوقف عند بعض النصوص من كتاب "بداية المجتهد" كي نرى أن لغة ابن رشد والمصطلحات التي يستعملها، تختلف إلى حدٍّ كبير عن لغته وأسلوبه وتعامله مع المصطلحات، في الفلسفة وتلخيص الفكر اليوناني ونقله علوم الأوائل. وكذلك تختلف عن لغته إلى حدٍّ كبير في التأليف والإبداع في ميادين الطب والتقريب بين الفلسفة والشريعة. ولا شك أن لهذه الميادين مستويات لغوية واصطلاحية مختلفة، تتجاوب وطبيعة حقول المعرفة التي تعنى بها، مثل الفلسفة وعلم الكلام وأصول الفقه ومصطلح الحديث والصوفية، إلى جانب اللغة الأدبية شعراً ونثراً.

ففي حديث ابن رشد عن "أحكام العيوب في البيع المطلق" يقول:" والأصل في وجود الرد بالعيب قوله تعالى – إلاَّ أنْ تَكُونَ تجارَةً عَنْ تراضٍ مِنْكُمْ – وحديث المصرّاة المشهور، ولما كان القائم بالعيب لا يخلو أن يقوم في عقد يوجب الرد، أو يقوم في عقد لا يوجب ذلك، ثم إذا قام في عقد يوجب الرد، فلا يخلو أيضاً أن يقوم بعيب يوجب حكماً أو لا يوجبه، ثم إن قام بعيب يوجب حكماً فلا يخلو المبيع أيضاً أن يكون قد حدث فيه تغير بعد البيع أو لا يكون، فإن كان لم يحدث فما حكمه؟ وإن كان حدث فيه فكم أصناف التغييرات وما حكمها؟ كانت الفصول المحيطة بأصول هذا الباب خمسة: الفصل الأول: في معرفة العقود التي يجب فيها بوجود العيب حكم، من التي لا يجب ذلك فيها. الثاني: في معرفة العيوب التي توجب الحكم، وما شرطها الموجب للحكم فيها. الثالث: في معرفة حكم العيب الموجب إذا كان المبيع لم يتغير. الرابع: في معرفة أصناف التغيرات الحادثة عند المشترى وحكمها.

---

(١) . ابن رشد، بداية المجتهد، ج١ص٢.

الخامس: في القضاء في هذا الحكم عند اختلاف المتبايعين، وإن كان أليق بكتاب الأقضية.

الفصل الأول

في معرفة العقود التي يجب فيها، بوجود العيب، حكم من التي لا يجب فيها. أما العقود التي يجب فيها بالعيب حكم بلا خلاف، فهي العقود التي المقصود منها المعاوضة، كما أن العقود التي ليس المقصود منها المعاوضة لا خلاف أيضاً في أنه لا تأثير للعيب فيها. كالهبات لغير الثواب والصدقة؛ وأما ما بين هذين الصنفين من العقود. أعنى ما جمع قصد المكارمة والمعاوضة مثل هبة الثواب، فالأظهر في المذهب أنه لا حكم فيها بوجود العيب. وقد قيل يحكم به إذا كان العيب مفسداً.

الفصل الثاني

في معرفة العيوب التي توجب الحكم، وما شرطها الموجب للحكم فيها وفي هذا الفصل نظران: أحدهما: في العيوب التي توجب الحكم. والنظر الثاني في الشرط الموجب له.

(النظرة الأول) فأما العيوب التي توجب الحكم: فمنها عيوب في النفس؛ ومنها عيوب في البدن، وهذه منها ما هي عيوب بأن تشترط أضدادها في المبيع وهي التي تسمى عيوباً من قبل الشرط؛ ومنها ما هي عيوب توجب الحكم وإن لم يشترط وجود أضدادها في المبيع، وهذه هي التي فقدُها نقص في اصل الخلقة؛ وأما العيوب الأخر فهي التي أضدادها كمالات، وليس فقدها نقصاً مثل الصنائع، وأكثر ما يوجد هذا الصنف في أحوال النفس، وقد يوجد في أحوال الجسم. والعيوب الجسمانية، منها ما هي في أجسام ذوات الأنفس، ومنها ما هي في غير ذوات الأنفس. والعيوب التي لها تأثير في العقد هي عند الجميع ما نقص عن الخلقة الطبيعية أو عن الخلق الشرعي نقصاناً له تأثير في ثمن المبيع، وذلك يختلف بحسب اختلاف الأزمان والعوائد والأشخاص. فربما كان النقص في الخلقة فضيلة في الشرع. كالخفاض في الإماء، والختان في العبيد، ولتقارب هذه المعاني في شيء شيء مما يتعامل الناس به وقع الخلاف بين الفقهاء في ذلك. ونحن نذكر من هذه المسائل ما اشتهر الخلاف فيه بين الفقهاء ليكون ما يحصل من ذلك في نفس الفقيه يعود كالقانون والدستور الذي يعمل عليه فيما لم يجد فيه نصاً عمن تقدمه، أو فيما لم يقف على نص فيه لغيره، فمن ذلك وجود الزنى في

العبيد. اختلف العلماء فيه؛ فقال مالك والشافعي: هو عيب؛ وقال أبو حنيفة: ليس بعيب وهو نقص في الخلق الشرعي الذي هو العفة؛ والزواج عند مالك عيب، وهو من العيوب العائقة عن الاستعمال وكذلك الدين، وذلك أن العيب بالجملة هو ما عاق فعل النفس أو فعل الجسم وهذا العائق قد يكون في الشيء وقد يكون من خارج؛ وقال الشافعي: ليس الدين ولا الزواج بعيب فيما أحسب. والحمل في الرائعة عيب عند مالك. وفي كونه عيباً في الوخش خلاف في المذهب. والتصرية عند مالك والشافعي عيب وهو حقن اللبن في الثدي أياماً حتى يوهم ذلك أن الحيوان ذو لبن غزير، وحجتهم حديث المصرّاة المشهور، وهو قوله صلى الله عليه وسلم "لا تُصَرُّوا الإبلَ والبَقَرَ، فَمَنْ فَعَل ذلكَ فَهُو بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إن شاءَ أمْسَكَها وإنْ شاءَ رَدَّها وصَاعاً من تَمرٍ" قالوا: فأثبت له الخيار بالرد مع التصرية، وذلك دالّ على كونه عيباً مؤثراً. قالوا: وأيضاً فإنه مدلِّس، فأشبه التدليس بسائر العيوب. وقال أبو حنيفة وأصحابه: ليست التصرية عيباً للاتفاق على أن الإنسان إذا اشترى شاة فخرج لبنها قليلاً أن ذلك ليس بعيب. قالوا: وحديث المصراة يجب أن لا يوجب عملاً لمفارقته الأصول، وذلك أنه مفارق للأصول من وجوه: فمنها أنه معارض لقوله عليه الصلاة والسلام "الخَرَاجُ بالضَّمانِ" وهو أصل متفق عليه؛ ومنها أن فيه معارضة منع بيع طعام بطعام نسيئة، وذلك لا يجوز باتفاق؛ ومنها أن الأصل في المتلفات إما القيم وإما المثل، وإعطاء صاع من تمر في لبن ليس قيمة ولا مثلاً ومنها بيع الطعام المجهول: أي الجزاف بالمكيل المعلوم، لأن اللبن الذي دلس به البائع غير معلوم القدر، وأيضاً فإنه يقل ويكثر، والعوض ههنا محدود، ولكن الواجب أن يستثنى هذا من هذه الأصول كلها لموضع صحة الحديث، وهذا كأنه ليس من هذا الباب وإنما هو حكم خاص. ولكن اطرد إليه القول فلترجع إلى حيث كنا فنقول: إنه لا خلاف عندهم في العور والعمى وقطع اليد والرجل أنها عيوب مؤثرة، وكذلك المرض في أيّ عضو كان، أو كان في جملة البدن، والشيب في المذهب عيب في الرائعة، وقيل لا باس باليسير منه فيها، وكذلك الاستحاضة عيب في الرقيق والوخش، وكذلك ارتفاع الحيض عيب في المشهور من المذهب، والزَّعَر عيب، وأمراض الحواس والأعضاء كلها عيب باتفاق. وبالجملة فأصل المذهب أن كل ما أثر في القيمة: أعنى نقص منها فهو عيب، والبول في الفراش عيب، وبه قال

الشافعي؛ وقال أبو حنيفة: تردّ الجارية به، والتأنيث في الذكر والتذكير في الأنثى عيب هذا كله في المذهب إلا ما ذكرنا فيه الاختلاف.

(النظر الثاني) وأما شرط العيب الموجب للحكم به فهو أن يكون حادثاً قبل أمد التبايع باتفاق أو في العهدة عند من يقول بها، فيجب ههنا أن نذكر اختلاف الفقهاء في العهدة فنقول: انفرد مالك بالقول بالعهدة دون سائر فقهاء الأمصار، وسلفه في ذلك أهل المدينة الفقهاء السبعة وغيرهم، ومعنى العهدة أن كل عيب حدث فيها عند المشترى فهو من البائع، وهي عند القائلين بها عهدتان: عهدة الثلاثة الأيام، وذلك من جميع العيوب الحادثة فيها عند المشترى. وعهدة السنة، وهي من العيوب الثلاثة: الجذام والبرص والجنون، فما حدث في السنة من هذه الثلاث بالمبيع فهو من البائع، وما حدث من غيرها من العيوب كان من ضمان المشترى على الأصل. وعهدة الثلاث عند المالكية بالجملة بمنزلة أيام الخيار وأيام الاستبراء والنفقة فيها والضمان من البائع. وأما عهدة السنة فالنفقة فيها والضمان من المشترى إلا من الأدواء الثلاثة، وهذه العهدة عند مالك في الرقيق، وهي أيضاً واقعة في أصناف البيوع في كل ما القصد منه المماكسة والمحاكرة وكان بيعاً لا في الذمة، هذا ما لا خلاف فيه في المذهب، واختلف في غير ذلك. وعهدة السنة تحسب عنده بعد عهدة الثلاث في الأشهر من المذهب، وزمان المواضعة يتداخل مع عهدة الثلاث إن كان زمان المواضعة أطول من عهدة الثلاث. وعهدة السنة لا تتداخل مع عهدة الاستبراء، هذا هو الظاهر من المذهب، وفيه اختلاف. وقال الفقهاء السبعة: لا يتداخل منها عهدة مع ثانية، فعهدة الاستبراء أوّلاً، ثم عهدة الثلاث، ثم عهدة السنة. واختلف أيضاً عن مالك هل تلزم العهدة في كل البلاد من غير أن يحمل أهلها عليها؟ فروى عنه الوجهان، فإذا قيل لا يلزم أهل هذه البلد إلا أن يكونوا قد حملوا على ذلك فهل يجب أن يحمل عليها كل بلد أم لا؟ فيه قولان في المذهب، ولا يلزم النقد في عهدة الثلاث وإن اشترط، ويلزم في عهدة السنة؛ والعلة في ذلك أنه لم يكمل تسليم البيع فيها للبائع قياساً على بيع الخيار لتردد النقد فيها بين السلف والبيع، فهذه كلها مشهورات أحكام العهدة في مذهب مالك وهي كلها فروع مبنية على صحة العهدة، فلنرجع إلى تقرير حجج المثبتين لها والمبطلين. وأما عمدة مالك رحمه الله في العهدة وحجته التي عوّل

عليها، فهي عمل أهل المدينة. وأما أصحابه المتأخرون فإنهم احتجوا بما رواه الحسن عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "عُهْدَة الرَّقِيقِ ثَلاثَةُ أيَّام" وروى أيضاً " لا عُهْدَةَ بَعْدَ أرْبَعٍ" وروى هذا الحديث أيضاً الحسن عن سمرة بن جندب الفزارى رضى الله عنه، وكلا الحديثين عند أهل العلم معلول، فإنهم اختلفوا في سماع الحسن عن سمرة، وإن كان الترمذي قد صححه وأما سائر فقهاء الأمصار فلم يصح عندهم في العهدة أثر، ورأوا أنها لو صحت مخالفة للأصول، وذلك أن المسلمين مجمعون على أن كل مصيبة تنزل بالمبيع قبل قبضه فهي من المشترى، فالتخصيص لمثل هذا الأصل المتقرر إنما يكون بسماع ثابت، ولهذا ضعف عند مالك في أحد الروايتين عنه أن يقضى بها في كل بلد إلا أن يكون ذلك عرفاً في البلد أو يشترط وبخاصة عهدة السنة، فإنه لم يأت في ذلك أثر. وروى الشافعي عن ابن جريج قال: سألت ابن شهاب عن عهدة السنة والثلاث فقال: ما علمت فيها أمراً سالفاً. وإذ قد تقرر القول في تمييز العيوب التي توجب حكماً من التي لا توجبه وتقرر الشرط في ذلك، وهو أن يكون العيب حادثاً قبل البيع أو في العهدة عند من يرى العهدة، فلنصر إلى ما بقى[1].

فابن رشد يرتفع باللغة الفقهية إلى خصائص اللغة العلمية الأصيلة، فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب، ودقة تعبير ووضوح مقصد. وهو في استعماله المصطلحات العلمية، يجعلها سائغة أمام الدارسين والباحثين على وفق المنهج الذي رأيناه سائداً في مؤلفاته الأخرى. وأن الميزة التي تطبع المصطلحات، الإرث الخصب الذي تركه الفقهاء وأئمة المذاهب والفرق الإسلامية الذين سبقوه، منذ الصحابة رضي الله عنهم. وإن لغة الفقه تتميز بأنها لغة مستمرة الحياة والنمو، من خلال أحداث ووقائع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأحوال الشخصية في المجتمعات الإسلامية، منذ بزوغ فجر الإسلام هداية للعالمين، وحتى يوم الناس هذا.

ففي هذا النص يستعمل ابن رشد اصطلاحات، يدعمها بذكر الطرق التي ينشأ عنها الحكم الشرعي. فيذكر اصطلاح "الرَّد بالعيب"، ويدعمه بالطريق الأصل وهو قوله تعالى:" إلا

---

(١) . بداية المجتهد، ج٢ ص ١٧٣- ١٧٧.

أن تكون تجارةً عن تراض منكم"[1]. والطريق الثاني مما تُتَلَقَّى الأحكام عن النبي عليه الصلاة والسلام بالجنس ثلاثة إما لفظ وإما فعل، وإما إقرار[2]، فيذكر هنا في هذا النص حديث المصرّاة المشهور... ويستعمل اصطلاح " العقد" و"الحكم" ثم يسرد الفصول المحيطة بأصول أحكام العيوب في البيع المطلق، وعددها خمسة فُصُول... ويستعمل اصطلاح "المعاوضة" و"المكارمة" و"عيوب في النفس" و"عيوب في البدن" و"والعيب من قبل الشرط" و" العيوب الجسمانية" ويذكر ما اشتهر الخلاف فيه بين الفقهاء ليكون، على حدِّ تعبيره، ما يحصل من ذلك في نفس الفقيه يعود كالقانون والدستور الذي يعمل عليه فيما لم يجد فيه نصاً عمن تقدمه[3]. ...فيورد مثلاً ما قاله مالك والشافعي، وما قاله أبو حنيفة مخالفاً لهما... ويستعمل اصطلاح: "الرائعة" و"الوخش" و"التَّصْرية" ويشرح الاصطلاح على وفق منهجه في كثير من الأحيان فيقول:" والتَّصْرية عند مالك والشافعي عيب، وهو حقن اللبن في الثدي أياماً حتى يوهم ذلك أن الحيوان ذو لبن غزير... وحجتهم حديث المصَّراة المشهور.

ويورد ابن رشد نص الحديث... ويستعمل اصطلاح "الخراج بالضّمان" ويعتبره اصطلاحاً متفقاً عليه، ويستعمل اصطلاح " النسيئة" ويستعمل اصطلاح " بيع الطعام المجهول" ويشرح معناه بقوله:" أي الجزاف بالمكيل المعلوم" وعندما يستعمل عبارة "أن كل ما أثَّرَ في القيمة" يشرح هذا الاصطلاح ويحدده فيقول:" أعني نَقَّص منها..."... ويستعمل اصطلاح "العهدة" ويذكر اختلاف الفقهاء فيها... ويشرح ابن رشد معنى الاصطلاح في السياق فيقول:" ومعنى العهدة أن كل عيب حدث فيها عند المشتري فهو من البائع... ويتحدث عن "عهدة الثلاثة أيام" و" عهدة السّنة". و" أيام الاستبراء" و"أيام الخيار" و"المماكسة" و"المحاكرة" و"المواضعة".

فمن الواضح أننا أمام فيلسوف وعالم وفقيه عربي إسلامي أصيل قد احتل مكانة

---

(١) . سورة النساء: ٢٩.

(٢) . بداية المجتهد، ج٢ ص٢.

(٣) . انظر: بداية المجتهد، ج٢ ص١٧٥.

سامية في الفكر العلمي وكانت لمصنفاته دور أساس في قيام النهضة الأوروبية الحديثة. وقد عمق دور اللغة العربية، من حيث كونها لغة الطب والعلوم على اختلاف حقولها، ولغة الفلسفة والفكر إلى جانب كونها لغة الفقه والكلام والأصول والأدب. وتتميَّز لغة ابن رشد، اصطلاحاً وفصاحة وأساليب تعبير, بالسهولة والوضوح والدقة... وأن اتجاه ابن رشد الفلسفي والعقلي، واضح في دراسته الفقهية في كتاب " بداية المجتهد" وفي كتابه "فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، وكذلك في كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد المِلَّة".

وخلاصة القول: فإن مؤلفات ابن رشد التي وضعها، خارج ميادين الفكر اليوناني وعلوم الأوائل، مصنفات في "المنهج، بلغة عربية تتسم بالفصاحة والسهولة والدقة، وكان له دور كبير في إرساء خصائص اللغة العربية العلمية، على وفق الموضوعات والعلوم التي كانت ميادين دراساته وبحوثه، شرحاً وتلخيصاً ونقلاً وإبداعاً. ومثل ذلك يقال في مجال " الاصطلاحات العلمية"، سواء أكان ذلك في إشاعة استعمالها، أو تحديد مفاهيمها أو إرساء قواعد وضعها. فقد كان له دور بارز في إرساء كيان اللغة العربية العلمية والفلسفية، بسبب ما توافر لديه من إرث فكري وعلمي وأدبي خصب، عمن سبقه من العلماء والأطباء والفلاسفة والأدباء وأئمة الفقه واللغة...

وقد اقتصرنا في هذا البحث على الإشارة إلى ما أضافه الفيلسوف ابن رشد إلى خصائص اللغة العربية العلمية والفكرية، من حيث المصطلح ووضوح العبارة ودقة المدلول وسهولة اللفظ. فقدَّم للحضارة العربية الإسلامية وللحضارة العالمية مصنفات رائعة في حقول العلوم المختلفة، في الفلسفة والطب والعلوم والفقه والأصول والمنطق وعلم الكلام... وهو في ذلك كله يتكامل مع المهمة العلمية الكبيرة التي نُدب إليها، لأزاله القلق والغموض من عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه. فقد فهمها فهماً جيداً، ولخَّصَ معانيها وقرّب مأخذها على الناس بلغة عربية فصيحة تتميز بالسهولة والوضوح والدقة. ولم يقتصر الأمر على فكر أرسطو بل شمل الفكر اليوناني وعلوم الأوائل بصورة عامة.

وخلاصة القول، فإن ابن رشد الحفيد، لم يتميز بكونه شارحاً لفكر أرسطو ولا مترجماً

له فحسب ولكنه يتميز في تأصيل العلم والفلسفة في اللغة العربية. فقد كان فيلسوفاً عربياً إسلامياً، ترك أثاراً عميقة في الحضارة الإنسانية إلى جانب ما تركه أسلافه مثل الفارابي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم من أئمة الفكر والعلم والفقه... وقد أصبحت اللغة العربية إذ ذاك لغة الفكر والعلم في العالم ولعدة قرون... وكانت دراستها تشكل متطلباً أساسياً من متطلبات المؤسسات العلمية والجامعية في أوروبا، من حيث كونها اللغة الأولى للمصادر العلمية في جميع حقول العلم والمعرفة. وأسأله تعالى التوفيق والهداية.

* * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن أبي أصيبعة – موفق أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار حنا، بيروت.
- ابن خلدون– عبد الرحمن، المقدمة، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن رشد– محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج١–٢، الطبعة السادسة، بيروت، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
- ابن رشد، تلخيص كتاب "المقولات"، تحقيق محمود قاسم، مصر، ١٩٨٠م.
- ابن رشد، رسائل ابن رشد الطبية، تحقيق جورج شحاته قنواتي وسعيد زايد، تصدير إبراهيم مدكور، القاهرة.
- ابن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، بيروت، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
- ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة. بيروت، عام ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
- ابن رشد، الكليات في الطب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت عام ١٩٩٩م.
- أعمال ندوة ابن رشد ومدرسته في الغرب الإسلامي، بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاة ابن رشد، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م.

- بدوي- عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١م.
- التليلي- عبد الرحمن، ابن رشد الفيلسوف العالم، تونس، عام ١٩٩٨م.
- صليبا- جميل، المعجم الفلسفي، ج١-٢، الطبعة الأولى، بيروت عام ١٩٧٣م.
- المراكشي- عبد الواحد بن علي التميمي، من كتاب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)، اختيار وتقديم أحمد بدر، دمشق.
- Eneyclopaedia Of Islam, New Edition, Leiden- London, ١٩٧١.